Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (4), Issue (10) : 30 Oct 2020
P: 81 - 91
ISSN: 2522-3380
مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (4)، العدد (10) : 30 أكتوبر 2020 م
ص:81 - 91

Agriculture in the City of Jerusalem
The Ayyubid period "as a model" (583H - 648H / 1187 - 1250)

Shadi Mohammad Awwad
Faculty of Educational Sciences || Al-Quds Open University || Palestine

Abstract: This study deals with the talk about agriculture in the city of Jerusalem, the Ayyubid era as a model, which was represented in the study of agriculture and its conditions in terms of the nature of the land and the conditions of agriculture in the city of Jerusalem, and talked about the land used in that era, methods of land investment, irrigation sources and methods. The study discussed the most important crops which produced in the city of Jerusalem, and then mentioned the most important animals and machinery used by the farmers in the city.

The researcher has sought in this study to adopt the information contained in this study from considerable primary sources, despite the lack of resources and studies that dealt with the subject, and the researcher has proven in this study the reality and importance of agriculture in the city of Jerusalem in particular, and this is what the researcher stated contrary to what the Israeli occupation claims that Palestine was a barren country without agriculture.

Keyword: Jerusalem, Agriculture, Ayyubi period, Land, Irrigation.

الزراعة في مدينة القدس
"العهد الأيوبي" أنموذجاً (583هـ-648هـ/1187م-1250)

شادي محمد عواد
كلية العلوم التربوية || جامعة القدس المفتوحة || فلسطين

الملخص: تتناول هذه الدراسة الحديث عن الزراعة في مدينة القدس "العهد الأيوبي أنموذجاً، فتمثلت في دراسة الزراعة وأوضاعها من حيث طبيعة الأرض وظروف الزراعة في مدينة القدس، وتناولت الحديث عن الأراضي المستخدمة في ذلك العهد، وأساليب استثمار الأرض، ومصادر الري وأساليبه. وناقشت الدراسة أهم المحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها مدينة القدس ثم التطرق إلى أهم الحيوانات والآلات التي استخدمها الفلاحون في المدينة.

وقد سعى الباحث في دراسته هذه على اعتماد المعلومات الواردة في هذه الدراسة من مصادر أولية معتبرة، رغم قلة المصادر والدراسات التي تناولت الموضوع، وقد أثبت الباحث في هذه الدراسة حقيقة وأهمية الزراعة في مدينة القدس خاصة، وهذا ما أورده الباحث على عكس ما يدعيه الاحتلال الإسرائيلي من أن فلسطين كانت بلاداً قاحلة لا زراعة فيها.

الكلمات المفتاحية: القدس، الزراعة، العهد الأيوبي، أرض، ريّ.

مقدمة:

من المعروف أن مدينة القدس قد عادت إلى الحظيرة الإسلامية بعد أن حررها صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين عام 583هـ/1187م بعد معركة حطين، حيث حرر صلاح الدين الأيوبي القدس من الفرنج بعد حكم دام

ثمان وثمانين سنة، وكان لهذا النصر ردة فعل في العالمين الإسلامي والمسيحي؛ فبالنسبة للمسلمين فقد تغنى العلماء والفقهاء والشعراء بهذا النصر الكبير، ورفع ذلك من مكانة صلاح الدين الأيوبي الذي أعدوه بطلاً وقائداً للأمة الإسلامية. أما في العالم المسيحي، فقد كان لضياع القدس من أيديهم ردة فعل عنيفة تمثلت في إرسال حملات أخرى لاستعادة القدس، وكان هدف صلاح الدين بعد تحرير مدينة القدس إعادة الطابع الإسلامي للمدينة وإزالة كل ما يشير إلى الوجود الصليبي، وإحداث تغييرات في جميع مناحي الحياة في المدينة ومن هذه الأمور التي اهتم بها صلاح الدين الزراعة.

فالزراعة من أول الأعمال والأنشطة التي مارسها سكان مدينة القدس خلال العهد الأيوبي ويتضح هذا عند الحديث عن مقومات الزراعة في القدس، حيث تتنوع الأقاليم بين الجبال والأودية والأغوار والعيون والمزارع، والطبيعة والمناخ، ووفرة المياه وخصوبة التربة، والثروة الحيوانية وعيون المياه الجارية.

إن دراسة موضوع الزراعة في مدينة القدس في أي عهد كان يتطلب الحديث عن أهمية الزراعة في تلك الحقبة في الحياة الاقتصادية، وكذلك لابد من دراسة العوامل الطبيعية التي لها علاقة مباشرة بالزراعة من خلال الموقع الجغرافي وطبيعة الأرض والأحوال المناخية، سواء كانت أمطار ورياح ودرجات حرارة، الأمر الذي له أثر كبير على الزراعة. وهنا بطبيعة الحال نتحدث عن مدينة القدس ولابد من دراسة كيف لعبت القرى المجاورة دوراً أساسياً هاماً في حياة مدينة القدس وسكانها، وكذلك نتحدث عن الزراعة وأهم منتجاتها الزراعية، وكيف اعتمدت الكثير من الصناعات على الإنتاج الزراعي، كما واعتمد الاقتصاد الفلسطيني في تلك الحقبة على الزراعة والإنتاج الزراعي مثل التجارة والأسواق والمؤسسات التجارية التي عرفتها المدينة في ذلك العهد، وكذلك العوامل التي ساعدت في ازدهار التجارة نتيجة لازدهار الزراعة.

أما بالنسبة لأهم **المعوقات والمشاكل** التي واجهت الباحث فتمثلت في صعوبة الحصول على بعض المصادر والمراجع والتي تتحدث عن الزراعة في فلسطين وخاصة مدينة القدس، سيما وأن المصادر التي تناولت العهد الأيوبي قليلة أيضاً، وكانت هذه المصادر تتناول الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية بشكل أكبر من الأمور الاقتصادية وخصوصاً الزراعية.

وفيما يتعلق **بأهم المصادر** التي اعتمد عليها الباحث فمنها كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي، وكذلك كتاب ياقوت الحموي: (معجم البلدان). وكتاب (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) لمجير الدين الحنبلي. وكتاب أبو شامة المقدسي: (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية). وكتاب (الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام) لمؤلفه حاتم عبد الرحمن الطحاوي، وكتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر البناء البشاري المقدسي. وأخيراً كتاب (الخراج) لمؤلفه يعقوب بن إبراهيم بين حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري أبو يوسف.

وتكمن **مشكلة الدراسة** في دراسة الحياة الاقتصادية في أي عصر من العصور التاريخية وخاصة الزراعة، وهي من المواضيع المهمة التي يتعين على القارئ الولوج إلى غمارها، خاصةً وأن دراسة الحياة الزراعية في العهد الأيوبي تأتي في مرحلة خطيرة جداً من تاريخ فلسطين عامة والقدس خاصة بعد الاحتلال الصليبي الذي دام من عام (492هـ-583هـ/1099م-1187) حيث استمر ثمانية وثمانون عاماً غيَّر خلالها كل ما هو إسلامي وحوله إلى صليبي، وكذلك تكمن مشكلة الدراسة في ادعاء الاحتلال الإسرائيلي أن فلسطين عامة والقدس خاصة هي قاحلة وغير مزروعة خلال العصور التاريخية المختلفة وخاصة أثناء الحكم الإسلامي لهذه البلاد، وأن الاحتلال الإسرائيلي هو الذي حوَّل هذه البلاد إلى جنة عدن. فتأتي هذه الدراسة للرد عليهم بأن فلسطين عامة والقدس خاصة هي أرض عامرة ومزروعة ومنتجة على مر التاريخ وخصوصاً أثناء الحكم الإسلامي لهذه البلاد وهنا نأخذ العهد الأيوبي أنموذجاً.

اتبع الباحث **المنهج التاريخي الوصفي التحليلي**، حيث قام الباحث بمراجعة المصادر والمراجع ذات العلاقة بموضوع البحث، فجمع الباحث المعلومات والروايات التاريخية وقام بتحليلها بشكل موضوعي بما يخدم موضوع الدراسة.

طبيعة الأرض وظروف الزراعة في مدينة القدس:

ازدهرت الزراعة في الكثير من المناطق في مدينة القدس والقرى التابعة لها بسبب اعتدال المناخ وخصوبة التربة وخبرة المزارعين، غير أن هناك مناطق غير منتجة زراعياً وخصوصاً المناطق الواقعة في شرق المدينة والتي تعتبر شديدة الانحدار الأمر الذي يؤدي إلى انجراف التربة، وكذلك قلة الأمطار في هذه المناطق لوقوعها في ظل المطر وعلاوة على ذلك فإن هذه المناطق الشرقية من مدينة القدس مرتفعة الحرارة في الصيف قليلة التربة ويكون مناخها شبه صحراوي، ولذلك فتعتبر هذه المناطق ضعيفة من ناحية الزراعة والاستيطان البشري (خمار، 1969، صفحة 189). وأكد ذلك أبو الفداء بقوله :"وعلى القرب من البحيرة المنتنة ديار قوم لوط، وهي ديار تسمى الأرض المقلوبة، وليس بها زرع ولا ضرع، ولا حشيش، وهي بقعة سوداء وقد فرش بها حجارة كلها متقاربة في الكبر" (Theoderich، 1984، الصفحات 53-54).

اتصفت بعض المناطق في المدينة المقدسة ذات الأهمية الدينية بالفقر، وعدم وجود موارد طبيعة فيها ووقوعها في وديان غير زراعية، ولم تشذ المدينة عن هذه القاعدة طوال عصورها التاريخية، حيث تحكمت عوامل طبيعية في مجريات أمورها الاقتصادية والزراعية، فهي تقع على خط عرض 32 درجة شمالاً، وعلى خط طول 35 درجة شرقاً، الأمر الذي جعلها بعيدة عن الأراضي الساحلية الخصبة وأراضي الغور الوفيرة.

فإذا نظرنا إلى بعض المناطق التابعة للمدينة، نجد أن بعض المناطق ذات طبيعة صخرية، وقد وصفها ياقوت الحموي بقوله: "إن أرضها وضياعها كلها جبال شامخة وليس حولها ولا بالقرب منها ارض وطيئة البتة" (الحموي، 1397-1993، صفحة 101)، وأما المدينة نفسها تقع في فضاء في وسط الجبال وأرضها كلها من حجر الجبال التي أقيمت عليها، وبالتالي لأدركنا مدى تأثير العوامل الطبيعية في حياتها الاقتصادية من قلة الأراضي الزراعية وقلة المياه، حيث لا توجد بها انهار، وكذلك كونها منطقة بركانية تعرضت منذ قديم الزمان لهزات أرضية ومنها ما كان مدمراً بحيث تقتل الناس والحيوانات بأعداد كبيرة (اعبيد، 2005، صفحة 190).

أما من الناحية الأخرى، فإن بعض المناطق في المدينة وخاصة نواة المدينة والمناطق القريبة منها، اجتمعت فيها عناصر خصوبة التربة واعتدال المناخ ووفرة المياه والأمطار، وعلاوة على ذلك مهارات السكان في استغلال المياه ما جعل منها منطقة مزدهرة زراعياً في العهد الأيوبي.

لقد توفرت معظم الأراضي الصالحة للزراعة في المنطقة القريبة من المدينة والمدينة نفسها، وتعتبر المدينة نفسها من أفضل الأراضي الزراعية في تلك الحقبة من تاريخ مدينة القدس، وخير مثال على ذلك جبل الزيتون ويسمى كذلك بجبل الطور وجبل القدس وطور زيتا، ويبلغ ارتفاعه 820 متراً عن سطح البحر، ويقع شرقي القدس ويكشف المدينة بأسرها (خمار، 1969،صفحة89). وجبل النبي صموئيل الذي يقع شمال غربي القدس ويبلغ ارتفاعه 875 متراً فوق مستوى سطح البحر (خمار، 1969 ، صفحة 101)، وجبل المشارف الذي يتصل بجبل الزيتون في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة (عزالدين، 1981،صفحة46)، حيث يبلغ ارتفاع بعض هذه الجبال ما يزيد عن 900 متر فوق مستوى سطح البحر الأمر الذي أثَّر في ظروف المدينة المناخية وبخاصة الرياح، فقد تعرضت المدينة تقريباً لكل أنواع الرياح عند هبوبها مثل الرياح الغربية والشرقية، والشمالية الغربية في فصل الشتاء، وأيضاً الرياح الشرقية والجنوبية، والتي كان لها أحيانا آثار سلبية؛ لان هبوبها كان يستمر لأكثر من ثلاثة أيام في كثير من الأحيان،

والتي غالبا ما تكون محملة بالرمال والأتربة وربما اقتلعت الأشجار وحملت معها كل ما يمكن تحريكه فضلا عما كان ينتج عن ذلك من اضطراب في كمية سقوط المطر، وما كان يؤدي ذلك إلى التأثير على الحاصلات الزراعية (اعبيد، 2005، صفحة 191).

وعلى الرغم مما تشير إليه كثير من المصادر عن طبيعة أرض بيت المقدس الصخرية وان الجبال تحيط فيها من كل جانب وانه ليس بها انهار أو آبار إلا أننا نستطيع أن نقول أن هناك الكثير من الأراضي في أطراف المدينة وحولها الكثير من التلال والأودية والقرى تخللها من موارد المياه، والتي أمدت المدينة في العهد الأيوبي بحاجة سكانها من الحبوب والفواكه والخضراوات، ولعل ما يؤكد ذلك ما أورده الرحالة ناصر خسرو في كتابه، حيث زار المدينة سنة 438هـ/1047م فيقول: "وسواد بيت المقدس جبلية كلها والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف كيلو غرام من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض ويصدرونها إلى أطراف العالم" (خسرو، 1983، صفحة 54). وكانت القرى المجاورة لبيت المقدس تمثل المناطق الزراعية، التي اعتمدت عليها المدينة في الوفاء باحتياجاتها من الغذاء، وكانت هناك أيضاً الأودية الغنية زراعياً وكذلك التلال المحيطة بالمدينة وما كان لها من أهمية في الرعي نظراً لما ينبت في هذه الأودية والتلال من حشائش ونباتات تصلح لرعي الحيوانات (الحنبلي، 1973، صفحة 409).

أنواع الأراضي:

تمثلّت أنواع الأراضي المستخدمة في مدينة القدس في العهد الأيوبي على النحو الآتي:

1. **الأراضي الأميرية:** وهي الأراضي التي تقوم الدولة بمنح حق التصرف فيها إلى شخص ما مع الاستمرار في مراقبتها، ومعظم أراضي فلسطين كانت في العهد الأيوبي تحت هذا النظام. علماً أن الأراضي الأميرية قابلة للتحويل من شخص إلى آخر، وإذا لم يكن هناك ورثة شرعيون لمالكها تنتقل إلى الدولة (زابورون، 1986، صفحة17).
2. **الأراضي المحلولة:** وهي الأرض التي يحق للدولة أن تعطيها لشخص آخر عندما تنتهي مدة التصرف لمالكها الأول (النحال، 1984، صفحة60-62).
3. **الأراضي الموات:** وهي الأراضي التي لا تعود لأحد وتكون بعيدة عن مراكز العمران في العادة (النحال، 1984، صفحة 62).
4. **الأراضي العمومية:** وهي الأراضي التي تكون ملكاً للدولة (النحال، 1984، صفحة62).

أساليب استثمار الأرض (محاسنة، 1993، الصفحات 202-203):

تعددت أساليب استثمار الأرض في مدينة القدس في العهد الأيوبي، وأهم هذه الأساليب:

- **التجارة:** وهي أن يشتري شخص أرضاً ويبعها لاحقاً بثمن أعلى من مبلغ الشراء.
- **الزراعة:** وهي أن يبذر أو يزرع الأرض صاحبها ومن ثم تعهد إلى فلاح آخر لجني المحصول.
- **المخابرة:** وهي أن تُبذر الأرض ويشرف عليها صاحبها ويحصدها فلاح آخر.
- **المساقاة:** وهي أن يدفع مالك الأرض المزروعة بالأشجار إلى فلاح آخر من أجل سقايتها وحمايتها ورعايتها إلى وقت قطف الثمار مقابل جزء معلوم ومتفق عليه من الثمار.
- **المغارسة:** وهي أن يعطي صاحب الأرض أرضاً إلى فلاح يغرسها الأشجار ويفيد منها خلال سنوات كثيرة وينال نصف الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد.

- **الضمان أو التضمين:** وهي أن تُعطى الأرض المزروعة بالأشجار لفلاح يستغل محصولها حتى نهاية الموسم مقابل مبلغ معين من المال.

مصادر الري:

تنوعت مصادر المياه في مدينة القدس، التي ساهمت كثيراً في تنوع الإنتاج الزراعي وزيادته. والتي تتمثل في:

- **الأمطار:** تتساقط الأمطار على فلسطين على ثلاث فترات، حيث تبدأ الأمطار بالسقوط في فصل الخريف، وتسمى هذه الأمطار بالخريفية (المبكرة)، والأمطار التي تتساقط في فصل الشتاء تسمى أمطاراً شتوية (موسمية)، وأما الأمطار التي تتساقط في فصل الربيع فتسمى أمطاراً ربيعية (متأخرة). ويتم استغلال الأمطار في بذر الحبوب وزراعة الأشجار ويبقى الرصيد الاستراتيجي من المياه في باطن الأرض (الإدريسي، 1989، صفحة 365).
- **آبار جمع المياه:** يتم تجميع مياه الأمطار في مدينة القدس حتى يتسنى للفلاحين استخدامها في وقت لاحق سواء للزراعة أو الشرب (المقدسي، 1991، صفحة 163). وقد عمد أهالي مدينة القدس إلى بناء البرك الكبيرة التي تتسع إلى كميات كبيرة من المياه (البدور، فلسطين في العهد الأموي: الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية، 2004، صفحة 163). وهناك آبار تابعة للدولة وتحدد لها أرض حرام فلا يجوز البناء فيها، وهناك الآبار الخاصة مثل آبار البيوت، أو الآبار التي يحفرها الفلاح في أرضه من أجل استخدامها في الصيف أما للشرب أو سقاية المزروعات (أبو_يوسف، 1999، صفحة 100).
- **الندى:** يتساقط الندى في فصل الصيف ليلاً، وهو على شكل مطر خفيف يكون محمولاً مع الهواء القادم من البحر الأبيض المتوسط، فيساعد في نمو المزروعات الصيفية (طوطح، 1923، صفحة 28).
- **مياه العيون:** استخدم سكان القدس مياه العيون للري سواء داخل مدينة القدس نفسها أو ربما جلبت المياه إلى المدينة عبر قنوات من خارج المدينة معتمدين على خاصية الانحدار (العمري، 2002، صفحة 534).

وهذا ما يتطلبه الوضع الديني الخاص بمدينة القدس الكثير من المياه لسقاية الحجيج المسلمين والمسيحيين، نظراً لقداستها عند المسلمين بسبب وجود المسجد الأقصى، وكذلك فهي مقدسة للمسيحيين بسبب وجود كنيسة القيامة فيها، وكذلك فإن من الاستخدامات الأساسية للمياه فيما يتعلق بأمور الزراعة.

أساليب الري:

تعددت أساليب الري في مدينة القدس في العهد الأيوبي، ومنها ماء المطر أو الندى أو الثلج، وهو ما ينزل من السماء ويسقي الأرض دون تدخل الإنسان ودون أي عناء. ومن أساليب الري ما يقوم به الفلاح من سحب المياه عبر قنوات داخل الحقل إما من العيون أو الأنهار أو البرك، وعند الاكتفاء يقوم الفلاح بسد هذه القنوات. وكذلك ما استخدمه الفلاح من أدوات ولكن بمشقة من النضح من الآبار أو البرك أو الدواليب. وأخيراً ما استقر من مياه الأمطار في باطن الأرض، فيشرب الزرع والشجر خلال انقطاع الأمطار في الربيع والصيف وتسمى هذه المزروعات بالبعلية (البدور، 2004، الصفحات 57-85).

المحاصيل الزراعية:

تتميز مدينة القدس بشكل عام عن غيرها من المناطق بعشرات أصناف المزروعات من الفواكه والخضروات والأشجار المثمرة والبقوليات تعيش على ماء المطر (الاصطخري، 1961، صفحة 163). فكان اعتماد مدينة القدس على ماء المطر.

كانت مدينة القدس غنية بإنتاج الحبوب الرئيسة كالقمح والشعير، والتي تشكل المواد الغذائية للسكان في العهد الأيوبي، كما تنوعت المحاصيل الزراعية في مدينة القدس وقراها وجبالها ووديانها، فاختلفت المزروعات من منطقة إلى أخرى في منطقة مدينة القدس، وذلك حسب وفرة المياه، فعلى سبيل المثال المزروعات التي تحتاج إلى الدفء ودرجات الحرارة المرتفعة كانت تزرع بكثرة في المناطق الشرقية والمحاذية لمدينة أريحا مثل منطقة الخان الأحمر هي قرية فلسطينية بدوية في محافظة القدس، تقع على الطريق السريع رقم واحد شرق مدينة القدس، وهي قريبة من البحر الميت (النحال، 1984، صفحة60)، حيث كان يزرع فيها الموز والنخيل والحمضيات، لأنها تحتاج إلى وفرة المياه ودرجات الحرارة العالية وهذه المنطقة مؤهلة لذلك؛ لأنها منطقة منخفضة وبها وفرة مياه بسبب المياه المهاجرة خصوصاً من الأردن وسوريا، فتهاجر هذه المياه إليها وتتجمع فيها؛ لأنها منطقة منخفضة جداً (المقدسي، 1991، صفحة 15).

وعند تحرير مدينة القدس من الفرنج سنة 583هـ/1187م اضطر صلاح الدين الأيوبي في بعض الأحيان إلى تزويد المدينة المقدسة والمدن الفلسطينية الأخرى بالغلال من البلقاء والسلط في منطقة شرقي الأردن عندما يكون هناك نقص في المحاصيل الأساسية مثل القمح والشعير (الأصفهاني، 1956، صفحة 611).

ومن الحبوب التي زرعت في مدينة القدس القمح والشعير، حيث كانت تكفي سكان المدينة وتفيض عن الحاجة في كثير من الأحيان، حيث وصفت فلسطين بشكل عام والقدس خصوصاً بكثرة القمح وقد تم تشبيه هذا القمح بالتراب لكثرته (البلاذري، 1959، صفحة 148). ومن أهم مناطق القدس شهرة وخصبا بالقمح جبل الزيتون (الفيتري، 1998، صفحة 35).

وقد جاء القمح والشعير في مقدمة الحبوب التي أنتجتها مدينة القدس في العهد الأيوبي ويعتبر هذان الصنفان مهمان لسكان مدينة القدس والمناطق المجاورة لها في تلك الحقبة لكثرة الحروب وعدم الاستقرار الأمني خصوصاً أن العهد الأيوبي شهد الكثير من الفتن والحروب. وتركزت زراعته في المنحدرات الشرقية من مدينة القدس وفي المنطقة الممتدة من القدس إلى برية القدس وبيت لحم القريبة (خسرو، 1983، صفحة 76).

فقد كان الفلاحون يبدأون بعملية حصد الحبوب في شهر نيسان في المناطق المنخفضة والشرقية من المدينة وفي شهر حزيران في المناطق الجبلية من المدينة مثل جبل الزيتون. وكانت تتم عملية الحصاد إما بالأيدي أو بواسطة المنجل، وهو عبارة عن قطعة من الحديد المعقوف، وبعد الحصاد يتم نقل المحصول إلى الجرن وهو مكان لجميع الغلال وهناك يتم فصل الحبوب عن التبن بواسطة دهسه عن طريق الحيوانات، ومن ثم يفصل عن طريق المذراة وهي الآلة التي ترفع القمح أو الشعير بعد أن تكون الحيوانات قد داسته، ومن ثم يذهب التبن في مكان ويسقط القمح أو الشعير في مكان آخر ومن ثم يتم تخزين الحبوب وعند الحاجة إليها كان التجار في مدينة القدس يستوردون القمح من منطقة شرقي الأردن التي اشتهرت بزراعته في العصر الأيوبي والمملوكي (غوانمة، 2015، صفحة 55).

كما واشتهرت مدينة القدس في العهد الأيوبي بشجرة الزيتون، مما دلَّ ذلك على تسمية جبل باسم جبل الزيتون ونظراً لكثرة أشجار الزيتون المزروعة في المدينة خصوصاً على هذا الجبل، فانتشرت بساتين الزيتون في أغلب مناطق المدينة وقراها فتواجدت أشجار الزيتون فيها بكثافة (حسين، 1978، صفحة 110). ولذلك نلاحظ أنه تم فرض ضريبة نقدية وعينية من الزيت والحنطة (ابن_سلام، 1968، صفحة 55).

وكان إنتاج زيت الزيتون في المدينة المقدسة يزيد عن حاجة السكان، لذلك كان يصدر إلى مختلف بقاع المعمورة وذلك لكونه من الأطعمة الأساسية عند العرب والمسلمين وغيرهم (الدينوري، 1987، صفحة 333).أما الذي يتبقى منه ولا يُستهلك ولا يصدر، يبقى مخزوناً للسنوات القادمة، حيث كان يتم حفظه في الآبار والأحواض المحفورة في الصخر في مدينة القدس (خسرو، 1983، صفحة 56)، ومن الجدير بالذكر أنه أطلق على الزيت اسم الركابي،

وذلك بسبب حمله على ظهور الإبل، حيث كانت القوافل تخرج من فلسطين محملة بزيت الزيتون إلى العراق والحجاز ومصر وبعض الدول الأوروبية (التعالبي، 1965، صفحة 532).

وكانت كميات كبيرة من زيت الزيتون تباع في المدينة في سوق يطلق عليه (سوق الزيت) وبجوار هذا السوق توجد المصابن، التي يصنع فيها الصابون التي تحتاج صناعته إلى توفير زيت الزيتون.

كان الفلاحون في مدينة القدس ومحيطها لا يبذلون كثيراً من الجهد في العناية بأشجار الزيتون، حيث إن هذه الشجرة تتحمل قسوة المناخ وقلة الأمطار وعدم وفرة التربة، فكانوا يحرثون الأرض حول شجرة الزيتون مرتين أو ثلاث مرات سنوياً، أما تقليمها فيتم مرة كل ثلاث أو أربع سنوات. كذلك فإن شجرة الزيتون لا تحمل ثماراً كثيرة كل عام وإنما عام بعد عام مثلما نعرف في الوقت الراهن.

وعادة ما يبدأ قطف ثمار الزيتون في شهر تشرين الثاني من كل عام، فكان يذهب الناس إلى بساتين الزيتون ومعهم بعض الأدوات التي تساعدهم على جني المحصول مثل العصي والجريد والسلالم والسلال والأكياس، ويقوم الرجال بتسلق الأشجار وعادة ما كان سكان القدس يضعون بعض الأفرشة تحت الشجرة من أجل أن يتجمع الزيتون عليها ومن ثم وضعها في مواعين خاصة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض الفلاحين في بيت المقدس كانوا يعتمدون على ترك بعض ثمار الزيتون دون جني حتى يأتي الفقراء ويجمعون ما تبقى منه، ويعتمد الفلاحون على عصر الزيتون بواسطة الرحى أو معاصر الزيتون التقليدية لاستخراج الزيت (الإدريسي، 1989، صفحة 363).

أما العنب فيعتبر من المحاصيل الزراعية الهامة والمشهورة واللذيذة في فلسطين، حيث صنفه المقدسي على أنه من أهم الثمار الفلسطينية وصنفه إلى العنب الدوري والعينوني (المقدسي، 1991، صفحة 163). وتعتبر مدينة القدس من أكثر مناطق فلسطين كثافة ببساتين العنب علماً بأنه تم تسمية بيت المقدس بحصن العنب، وذلك لكثافة كروم العنب في هذه المدينة (النصيبي، 1979، صفحة 169). وكان يتم تجفيف العنب تحت الشمس وينتج منه ثمار مفيدة اسمها الزبيب (الواقدي، 2005، صفحة 17).ويعتبر الزبيب عنباً مجففاً وأكثر ما كان يتم تناوله أثناء فصل الشتاء، وذلك لاحتوائه على كمية كبيرة من الجلوكوز فيمد الناس بالطاقة والدفء أثناء البرد الشديد. ومن المنتجات الأخرى والتي تصنع من العنب هي الدبس وهو عبارة عن عصير العنب يتم غليه؛ ليصبح لونه اسود ويتم استخدامه خلال فصل الشتاء كغذاء هام ومقوي للدم. وكانت أشجار العنب بعيدة عن سكن المزارعين، فلذلك كان المزارعون يقومون ببناء بيوت مؤقتة وسط البساتين من اجل الإقامة فيها طيلة فترة جني محصول العنب وحمايتها من اللصوص وكانت هذه البيوت تسمى (بيوت الكرو) (الحنبلي، 1973، صفحة 81).

زرع في مدينة القدس وما حولها الكثير من المحاصيل مثل التين الذي يؤكل طازجاً أو مجففاً ويسمى المجفف باسم (القطين)، وهو ذو قيمة غذائية عالية وعادة ما كان يتم تناوله في فصل الشتاء وخصوصاً أيام البرد القارس من أجل أن يمدهم بالطاقة والشعور بالدفء مثله مثل الزبيب.

زرعت كذلك في المدينة أشجار الجميز والخروب والنخيل وبعض الحمضيات مثل البرتقال والليمون خصوصاً في المناطق المنخفضة حول المدينة وفي المنحدرات الشرقية، وتم زراعة أشجار التفاح والخوخ والكمثرى واللوز والموز والرمان والقلقاس والفجل والفول والبصل والكرنب والخيار والترمس والنرجس من الورد سواء في المدينة نفسها أو في المناطق المرتفعة حول المدينة (المقدسي، 1991، صفحة 1896).

إذن زرعت الكثير من الأشجار والثمار في المناطق المنخفضة، ومن الجدير ذكره أن أهالي مدينة القدس والمناطق المحيطة بها قد استغلوا مادة تطفو على سطح البحر الميت وذلك من اجل استخدامها في دهن سيقان الأشجار والكروم، وذلك بهدف منع الحشرات والديدان من إلحاق الأذى بالأشجار (المقدسي، 1991، صفحة 183).

وقد غطت الكثير من الغابات الكثيفة مساحات واسعة من مدينة القدس كما أشار إلى ذلك الرحالة الذين زاروا المدينة في ذلك العهد، حيث عانوا من قطاع الطرق المختفين بين الأشجار الكثيفة في تلك الغابات وخاصة في الطريق بين القدس والخليل وأريحا (ابن_شداد، 1991، صفحة 239)، ومن الأشجار التي كانت تعيش في هذه الغابات أشجار البلوط والصنوبر، وهي أشجار عمرها يتجاوز المائة عام وبعضها إلى ألف عام (Kean, 1901, p. 252).

أما فيما يتعلق بالمؤثرات على الزراعة فهي كثيرة ومنها الكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات والحروب التي تأثرت بها القدس بشكل مباشر، وانعكس أثرها على السكان وبالتالي على الزراعة. وتمثل تأثيره على السكان في الهجرات وتدمير الزرع والمزارع نتيجة السيول والأمطار الغزيرة وموجات الجراد وعمليات السلب والنهب التي تعرضت لها مدينة القدس وقراها إما من قطاع الطرق أو اللصوص.

كما لوحظ في تلك الغابات بعض الحيوانات البرية مثل الضباع والخنازير والأرانب والظباء والثعالب... وقد شكلت تلك الغابات مخزوناً من الأخشاب التي استخدمت كوقود وفي الصناعات الحربية وفي أعمال الزخرفة والبناء والتدفئة وتصديرها إلى مدن مجاورة أخرى (البيشاوي، 1995، صفحة 171).

وتأثر نظام فلاحة الأرض في فلسطين عامة والقدس خاصة بالنظام الروماني، الذي يسير على نظام الحقلين بمعنى أنه يزرع الحقلين وبعدها يتم تبديلهما في السنة التالية بمزروعات مختلفة عن السنة السابقة، وذلك تجنباً لإجهاد الأرض وتحسيناً للإنتاج، وهذا يدل على إدراك الفلاح ما يفيد أرضه وما يسبب لها الأذى، ويأتي هذا الاهتمام في إطار أن الزراعة تُشكل المصدر الرئيس في حياة الفلاح الفلسطيني في العهد الأيوبي (غوانمة، 2015، صفحة 81).

الحيوانات والآلات التي استخدمها الفلاحون في الزراعة:

تشير المصادر والمراجع التي استعملها الفلاحون في مدينة القدس أنها لم تتغير كثيراً على مر الأزمان والعصور، ومنها ما هو مستخدم لغاية اليوم، فعلى سبيل المثال كان يُضرب الزيتون بخشبة حتى يتساقط ويتم جمعه فيما بعد. واستخدم الفلاحون أيضاً المحراث الخشبي الذي يجره الحمار أو الحصان أو الثور أو الجاموس أو البقر.

استخدم المزارعون في مدينة القدس وضواحيها في العهد الأيوبي الكثير من الحيوانات في حقولهم سواء للحرث أو النقل أو الركوب مثل البغال والحمير والثيران والجمال. أما الإبل فقد استخدمت لأهداف النقل وهي تحتاج للكثير من العناية ولكنها تتحمل الظروف الصعبة (Conder, 1879, p. 331). ولكن أهم الحيوانات التي استخدمها الإنسان فهو الحمار، فعليه يحمل أثقاله وكذلك حراثته الأرض ووسيلة للنقل والركوب على ظهورها (علي، 1986، صفحة 197).

ومن الأهمية بمكان ذكر أن الإبل كانت تُربى في مدينة القدس وخاصة في القبائل البدوية التي وجدت في برية القدس، ومما يؤكد أن أعدادها كانت كبيرة في فلسطين قول الرحالة بورشارد "هناك أعداد غير محددة من الجمال العربية وحيدة السنام" (البيشاوي، 1995، صفحة 171).

ويمكن الاستدلال مما سبق أن سكان القدس من البدو كان لديهم أعداد هائلة من الإبل، وربما هي عادة؛ لأن البدو بطبيعتهم يتباهون أمام العشائر الأخرى بالأعداد الكبيرة من قطعان الحيوانات، وتعود أهمية الإبل إلى أنها استخدمت للتنقل في الصحراء ولمسافات طويلة.

أما الطيور التي تربى في فمنها الدجاج والإوز والحمام وأنواع أخرى من الطيور المختلفة.

مارس سكان القدس حرفة الرعي خلال العصر الأيوبي فقد انتشرت هذه الحرفة إلى جانب الزراعة حيث كانت الكثير من المناطق المحيطة بالمدينة مثل المنحدرات الشرقية لمدينة القدس قليلة الغطاء النباتي ومأهولة

بالسكان وكانت تصلح لرعي المواشي والإبل (Karmon, 1975, p. 76). ومن ناحية أخرى، ونتيجة لانتشار الأزهار أصبح المزارعون ينتجون العسل وأصبحت مدينة القدس مدينة مشهورة بإنتاجه (البيشاوي، 1995، صفحة 17).

خاتمة:

تعتبر فلسطين بلاداً زراعية خصبة، وكانت الزراعة عماد الحياة الاقتصادية في منطقة القدس، واشتهرت منطقة القدس بحبوبها وأشجارها ووديانها وزروعها، واشتملت الزراعة على الكثير من المقومات منها توفر المياه ومساعدة الطبيعة وخصوبة التربة، حيث لاحظنا تنوع النباتات وذلك لتنوع التضاريس، وظهرت بساتين الفاكهة والحدائق المزروعة بالورود والأزهار، والكثير من المحاصيل أهمها العنب والزيتون والتين والكروم والرمان والجوز والبطيخ والحنطة والشعير وغيرها من المزروعات. وكان معظمها يعتمد على مياه الأمطار والينابيع والسيول، وقد ساعد المناخ على أيضاً في نجاح الزراعة.

واهتم سكان القدس في العهد الأيوبي بالثروة الحيوانية، وخاصة الأغنام، وكانوا ينتفعون من لحومها وألبانها وأصوافها وجلودها، وانتشرت كذلك تربية الأبقار والجواميس والخيول والبغال والحمير. واهتم السكان بتربية النحل من أجل الحصول على العسل، كما اهتموا أيضاً بتربية الطيور مثل الإوز والدجاج والحمام.

وتبين مما سبق أن الفتح الصلاحي لمدينة القدس كان مصحوباً بعودة الحياة الاقتصادية والحياة الزراعية وكان موضوع الزراعة يحظى باهتمام الدولة الأيوبية وحرصت على تنمية الزراعة وتطويرها مما دفع الفلاحين إلى استغلال الأراضي وعدم تعطيلها وجلب المياه لها.

وقد ازدهرت الزراعة في مدينة القدس في العهد الأيوبي بسبب خصوبة التربة واعتدال المناخ باستثناء الأراضي المنخفضة، والتي تقع إلى الشرق من المدينة باتجاه الأغوار، وعلى الرغم من قلة توفر المياه في تلك المنطقة واعتمادها على مياه الأمطار والينابيع والأودية استخدم الفلاحون طرقاً خاصة لتجميع المياه مثل الآبار، وكذلك شق القنوات كي تجري فيها المياه إلى جانب الخزانات الأرضية في البساتين والحقول.

نتائج الدراسة:

1. ازدهرت الزراعة في مدينة القدس في العهد الأيوبي.
2. تنوعت المحاصيل الزراعية لتلبي حاجات وأذواق الناس، وذلك بسبب تنوع التربة والمناخ وخبرة المزارعين.
3. مكانة مدينة القدس الدينية جذب إليها الناس من شتى بقاع الأرض، مما كان له الأثر الكبير في نقل المعرفة من شتى الميادين ومنها القطاع الزراعي.
4. هناك الكثير من الأراضي في أطراف المدينة وحولها الكثير من التلال والأودية والقرى تخللها من موارد المياه، والتي أمدت المدينة في العهد الأيوبي بحاجة سكانها من الحبوب والفواكه والخضراوات.
5. تعددت أساليب استثمار الأرض في مدينة القدس في العهد الأيوبي ومنها التجارة والزراعة والمخابرة والمساقاة والمغارسة والضمان.
6. تنوعت مصادر المياه والري في مدينة القدس، التي ساهمت كثيراً في تنوع الإنتاج الزراعي وزيادته، ومنها الأمطار والآبار والعيون والندى.
7. استعمل الفلاحون في مدينة القدس الحيوانات في العمل الزراعي ولم تتغير كثيراً على مر الأزمان والعصور، ومنها ما هو مستخدم لغاية اليوم.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر والمراجع بالعربية:

- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت367هـ/977)، صورة الأرض، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، 1979.
- ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت224هـ/838)، الأموال، تحقيق خليل هراس، القاهرة، 1968.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت684هـ/1250)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج2، تحقيق يحيى زكريا عبادة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991.
- أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن أسماعيل بن إبراهيم (ت6645هـ/1266)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بين حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (ت182هـ/798)، الخراج، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبية أزهرية للتراث، القاهرة، د.ت.
- الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت560هـ/1166)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، دار عالم الكتب، بيروت، 1989.
- الاصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، ت(957/346م)، "مسالك الممالك"، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، وزارة الثقافة والإرشاد الجمهورية العربية المتحدة، 1961.
- الأصفهاني، عماد الدين بن عبد الله بن محمد بن محمد الكاتب (ت 597هـ/1201)، الفتح القسي في الفتح القدس، تحقيق محمود صبح، الدار القومية للطبع والنشر، القاهرة، 1965.
- اعبيد، وائل عبد الرحيم، القدس في العهدين الأيوبي والفاطمي، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 2005.
- البدور، سليمان، فلسطين في العهد الأموي: الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية، وزارة الثقافة، عمان-الأردن، 2004.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/892)، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، 1959.
- البيشاوي، سعيد، وصف الأرض المقدسة: بواسطة الحاج بورشارد من دير جبل صهيون، دار الشروق، عمان، 1995.
- الثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (429هـ/1038)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، القاهرة، 1965.
- حسين، فالح، الزراعة في بلاد الشام في العصر الأموي، مطبعة دار الشعب، عمان، 1978.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله (ت626هـ/1228)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- الحنبلي، مجير الدين (ت927هـ/1520)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، د.ط، مكتبة المحتسب، عمان/الأردن، 1973.
- خسرو، ناصر (ت394هـ/1003)، سفر نامة، تحقيق يحيى الخشاب، ط3، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983.
- خمار، قسطنطين، موسوعة فلسطين الجغرافية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1969.
- الدينوري، أبو حنيفة بن داود (ت282هـ/897)، عيون الأخبار، تحقيق كامل السوافيري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

- زابورون، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986.
- الطحاوي، حاتم عبد الرحمن، "الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام"، ط1، عين للدراسات والبحوث الإسلامية والاجتماعية، 1999م.
- طوطح، خليل، جغرافية فلسطين، ط1، مطبعة بيت المقدس، القدس، 1923.
- عز الدين، فاروق محمد، القدس تاريخياً وجغرافياً، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981.
- علي، السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، 1986.
- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي شهاب الدين (ت749هـ/1349)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002.
- غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري للأردن في العصر المملوكي، ط3، نشر وزارة الثقافة، عمان، 2015.
- الفتيري، يعقوب (ت638هـ/1240)، تاريخ بيت المقدس، تعريب سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، 1998.
- القزويني، زكريا بن محمد (ت1300هـ/1912)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1960.
- متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط3، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1957.
- محاسنة، محمد، تاريخ مدينة دمشق خلال العهد الفاطمي، الجامعة الأردنية، عمان، 1993.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر البناء البشاري (ت380هـ/990)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980.
- النحال، محمد سلامة، فلسطين أرض وتاريخ، دار الجليل للنشر والتوزيع، عمان، 1984.
- الواقدي، محمد بن عمر (ت207هـ/823)، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، د.ت.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

- Conder, C.R., Tent Work in Palestine: record of discovery and adventure, Bentley. Collection, London,1879.
- Karmon, Yehuda, Changes in the Urban Geography of Hebron during the Nineteenth Century, in: Studies of Palestine during the Ottoman Period, edited by: Moshe Ma'oz, Jerusalem, 1975.
- Kean, James, Among the Holy Places: A pilgrimage through Palestine, Gersham Press, London, 1901.
- Theoderich, Description of the Holy Land, Translated by: Aubery Stewart, M.A., in: P.P.T.S., vol.v, London, 1984.